[كتاب التوحيد: 1]

شرح فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن صالح المحمود

بسم الله الرحمن الرحيم. إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فاعلموا أن أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي نبينا محمد صلى الله عليه وآله سلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة.

نبدأ بعونٍ من الله وتوفيقه هذه الدروس العلمية، المشتملة على نوعين من فنون العلم:

أحدهما: في العقيدة وفي "كتاب التوحيد".

والثاني: في تفسير القرآن العظيم.

وبالنسبة لدرسنا الأول، المتعلق بكتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وهو الكتاب الذي بلغت شهرته الآفاق، واعتنى به العلماء منذ تأليفه وإلى يومنا هذا، وكثرت شروحه. ولكن الذي نحب أن نوصي به في مقدمة هذا الدرس أمران:

أحدهما: أن العودة إلى تدريس التوحيد بمنهجه الصحيح، وصفائه، ضروريٌ في كل وقت، لكن تشتد ضرورته في هذه الأيام، هذه الأيام التي لا تجهلونها، هي مما تقتضي أن يعود طلاب العلم إلى ما يمكن أن يسمى بصفاء المنهج؛ لأن الغبش كثير، ولأن مكر الباطل مكرٌ كُبّار، قامت عليه قوى، ومكاتب، ومراكز دراسات، وبحوث عالمية، وتستخدم القوى المنتسبة إلى الإسلام من أجل التدليس، والتغيير، لما عُلم من صفاء هذا الدين، ونحن نوقن أنه سيبقى صافياً، لكن هذا المكر الكُبّار، وصل تأثيره إلى فئات، ما كان يظن الإنسان أن يصل تأثيره إليها، فئات اعتزت بهذا الدين، والتزمت به، واستقامت عليه، لكن مع هذا المكر الكُبّار، ومع هذا الانفتاح، بدأ يغزو مثل هذه الفئات التي هي عنوان صحوةٍ ومجدٍ لهذا الدين، عرفه العالمون في مشارق الأرض ومغاربها.

والخلخلة أيها الإخوة في أصول المنهج خطيرةٌ جداً؛ على القلب، وعلى النفس في العبادة، وعلى السلوك والأخلاق، وعلى اليقين والثبات، ثم إنها في نفس اللحظة هذه الخلخلة تؤثر على قدرة العطاء، بالنسبة لطلاب العلم، والداعين إلى الله عز وجل ؛ لأن الذي لا يحمل منهجه بقوة، لا يقدمه إلى الآخرين

بقوة، ومن ثم تلاحظون الآن أنه مع هذه الهزة المنهجية، صار حماس الكثيرين للدفاع عن هذا الدين، ولبيان منهجه، والدعوة إليه، صار مشتملاً على كثيرٍ من الضعف، ولهذا جاء في كتاب الله عز جل الوصية للأنبياء لأخذ هذا الدين بقوة؛ {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}، {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} وهكذا.. فالذي يحمل هذا الدين معتزاً به هو الذي يقدمه.

من ثم يا أيها الإخوة مع هذه الحالة التي لا تخفى عليكم، احتاج الأمر إلى العودة التأصيلية للمنهج، ومن ثم فإنني أقول في المسألة الثانية التي أحب أن أقدم لها، ونحن بصدد التعليق على كتاب التوحيد لهذا الإمام، أقول المسألة الثانية: لو سأل سائل وقال: ما الذي يحتاجه المسلمون في هذه المرحلة؟ لقلنا هناك أمور كثيرة، تتعلق بهم، وبداخلهم، وتتعلق بعدوهم، وتتعلق بقضايا كثيرة متعددة، لكن المسلمون اليوم هم بحاجةٍ ماسةٍ إلى أن تعود ثقتهم بإسلامهم، ودينهم، ومنهجهم. هذه الثقة هي التي تؤدي في حياة الإنسان والأمة إلى مجالاتٍ عرفناها في تاريخنا الإسلامي .

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما انطلقوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، وواجهوا حضارات، واجهوا حضارات، واجهوا مغريات، واجهوا ما يسمى الآن بمتغيرات، لكن لم تؤثر فيهم، وإنما هم أثروا فيها، السبب أنهم كانوا يحملون منهجهم بثقةٍ وبقوة ، هذا هو السبب.

والإنسان الذي يحمل منهجه بهذه القوة وبهذه الثقة في أي مكان كان، لا تخافوا عليه.

فلهذه الظروف التي تعيشها الأمة، كانت الحاجة إلى مثل هذه الدروس، التي قد لا تضيف معلومات محددة؛ نظراً لأن منهجنا فيها سيكون منهجاً متوسطاً، في أخذ الأبواب والتعليق عليها، وليس مطولاً، لكن نرجو أن تفتح في قلوبنا جميعاً آفاق جميلة، حية، تعيد إلى قلوبنا حياتها في ظل توحيد الله رب العالمين.

وإذا كان المؤمنون يوحدون الله في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وربوبيته، فينبغي لهم أن يوحدوا هم أنفسهم الله عز وجل في أعمالهم، وأفعالهم، وأقوالهم.

أيها الإخوة في الله.. كما قلت لكم سنأخذ إن شاء الله تعالى أكثر من باب في كل درس، نقف عند بعض المسائل المتعلقة به، ونسأل الله المعونة والتوفيق والسداد.

نبدأ.. اتفضل يا شيخ.. بسم الله الرحمن الرحيم.

القارئ: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين، والسامعين.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب التوحيد، وقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقوله: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) الآية. وقوله: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الآية. وقوله: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) الآيات. وقوله: (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) – إلى قوله –: (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا. فنطق بها معاذ تأثماً. أخرجاه في الصحيحين).

أحسنت..افتتح الشيخ كتابه الذي سماه "التوحيد" بـ"كتاب التوحيد"، وهذا من التأكيد بعد التأكيد. وكلمة التوحيد هي عنوان عقيدة المسلمين؛ لأن كلمة العقيدة تعلمون أنها هي ما يعتقده الإنسان، وقد يعقد قلبه على أمر صحيح، فتكون عقيدته صحيحة، وقد يعقد قلبه على أمرٍ باطل، فتكون عقيدته باطلة، فنقول عقيدة اليهود، عقيدة النصارى، عقيدة البوذيين، عقيدة الملاحدة، عقيدة الشيوعيين، لكن مصطلح التوحيد مصطلحٌ شرعي، أُخذ من كتاب الله عز وجل : {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، وأيضاً أئمة الإسلام رحمة الله عليهم من قديم ألفوا في هذا الباب، ابن خزيمة، وابن مَنْدَه... وغيرهم، ألفوا في العقيدة كتباً سموها "كتاب التوحيد".فالشيخ رحمه الله تعالى اختار لكتابه اسم "كتاب التوحيد" ليكون عنواناً على العقيدة، بمعنى أن العقيدة من أولها إلى آخرها، هي في النهاية ترجع إلى التوحيد.

في الدراسات الجامعية وغيرها، تجد دعوات إلى تغيير مسمى التوحيد، حتى في المناهج، يقول لماذا نسميه التوحيد؟ وهو يظن أننا نسميه التوحيد؛ لأنه نرتبط بسممحمد بن عبد الوهاب.. لا، قضية التوحيد قبل الشيخ، وهو إنما جاء بها مؤكداً لما في كتاب الله، وما في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأيضاً لمن سبقه من العلماء .

الشيخ رحمه الله تعالى هنا جعل عنوان كتابه "التوحيد"، وركز في هذا الكتاب على ثلاث قضايا:

القضية الأساسية وهي قضية التوحيد الأولى، وما يضاده من الشرك، وهذا هو الأمر الذي كان يعايشه الشيخ، ويعلم أن الأمة ستبقى تعايشه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. يعني لا يظنن الظان أن كتاب التوحيد؛ لأن في الجزيرة العربية، أو في نجد، أو في بعض المناطق، كان في عهد الشيخ شركيات، فألف كتاب التوحيد، وكأن الأمر لما انتهى والحمد لله، وعادت إلى التوحيد، وصار صفاء التوحيد هو السائد، لا حاجة إلى هذا.. لا، الشيخ نعم كان ابن عصره، وأكد على هذه القضية، وألف كتاب "التوحيد"؛ لأن أكبر مشكلة كانت تواجهه، هي هذه القضية على المستويين:

المحلي: في المكان والجهة التي بدأ فيها دعوته رحمة الله عليه؛

وعلى المستوى العام للدولة الإسلامية، بدءاً من الدولة العثمانية، وما اعتورها من الأقاليم.

فإن الشركيات كانت سائدةً ، ومن ثم فإن هذا الأمر لم ينقضي إلى يومنا هذا، لا تزال الآن هذه الشركيات الحقيقية، التي تصل إلى أنواعٍ من الشرك، ربما لم يقله المشركون في الجاهلية، لا تزال موجودة إلى الآن، ولا تزال مظاهرها الداعية إليها، المحسنة لها، موجودة.

وعند الرافضة كما تعلمون، هذه الأشياء هي المقدسة، بل تحول النجف، أو كربلاء أو غيرها، إلى أماكن تسمى المشرّفة، المقدّسة، مع أنه لا أحد قال بتقديس شيءٍ منها، وإنما التشريف والتقديس إنما هو لبيت الله الحرام، ولمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء الفضل فيه من المسجد الأقصى.

وكذلك أيضاً عند الغلاة ممن ينتسب إلى السنّة، كانت مظاهر هذه الشركيات للأسف الشديد موجودة وإلى يومنا هذا.

إذن تدريس كتاب التوحيد، تعليمه، نشره، ليس هو كما قد يقول البعض قضيةً مضت وانتهت، وإنما هو أمرٌ مهمٌ تشتد الحاجة إليه في كل وقت، وأقول والله إننا في هذه الأيام نحن أشد ما نكون إليها لأمرين:

انتشار الشركيات، والدعوات إليها عن طريق الوسائل المتعددة؛

والأمر الثاني: تهاون كثير من الأخيار، ومن المنتسبين إلى الصحوة الإسلامية، تهاونهم في هذا الأصل، مع أن التوحيد هو الأول، وهو الأصل، وهو المنطلق.

وإذا كان كذلك، فالشيخ رحمه الله تعالى أراد أن يقرر هذه القضية في كتاب "التوحيد"، هذه المسألة الأولى.

المسألة الثانية التي أرادها الشيخ رحمه الله تعالى ، وأراد بيانها، هي قضايا تتعلق بهذا التوحيد وما يضاده من الشرك الأكبر، والأصغر، ووسائل الشرك.

انظر إلى الكتاب، تجده يركز على هذه القضايا الثلاث: الشرك الأكبر؛

الشرك الأصغر؛

قول، فعل، وسائل الشرك.

وهذه القضايا الثلاث هي القضايا الأساسية التي يدور عليها مثل هذا الكتاب .

الأمر الثالث الذي أراد الشيخ رحمه الله تعالى أن يبينه، وهو يدل على أن الشيخ لم يخصص كتابه فقط لقضية التوحيد، هناك قضايا من مؤسسات ومكملات التوحيد، فبوّب باباً في الأسماء والصفات، بوّب باباً في القدر، بوّب باباً في التحاكم إلى ما أنزل الله.

إذن الشيخ رحمه الله تعالى كان واعياً للقضايا التي كان يريد أن يتحدث عنها، وهو يعلم أنها من لوازم التوحيد. ثم إنه افتتح كتابه بهذا العنوان: (كتاب التوحيد).. طبعاً (بسم الله الرحمن الرحيم كتاب التوحيد)، في بعض النسخ: "الحمد لله وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم"، لكن أكثر النسخ: (بسم الله الرحمن الرحيم كتاب التوحيد) والشيخ أتى بأحد الأمرين الذين جاءت بهما بعض الآثار، والأحاديث التي قد لا تثبت، وهو كان سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطاباته، فإنه كان يفتتحها ببسم الله الرحمن الرحيم.

فافتتح كتابه بكتاب التوحيد، ليجعل من الباب الأول عنواناً لبقية الأبواب، وهذا أسلوبٌ في التأليف جميل، يعطيك المعلومة المتكاملة في الباب الأول، ثم تبدأ الأبواب الأخرى، ولهذا جاء ترتيبه لها ترتيباً متسلسلاً جميلاً لمن تأمله. فمثلاً تكلم في كتاب التوحيد، أعقبه بأي شيء؟ "باب فضل التوحيد لاحظوا معي وما يكفر من الذنوب"، ثم أعقبه "باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب"، ثم أعقبه بما يضاد ذلك.

فالشيخ رحمه الله تعالى أراد أن يجمع في الباب الأول حقيقة التوحيد، وهو في كتابه هذا كما تعلمون، يجمع بين دلائل القرآن، ودلائل السنة، والآثار عن الصحابة، وأحياناً ينقل عن بعض العلماء المحققين، لكن غالب الأبواب تقوم على هذه الأسس الثلاثة: الدلائل من كتاب الله، ثم من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم من أقوال الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

طيب.. (كتاب التوحد وقول الله عز وجل : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) لاحظوا معي، ما هو عنوان التوحيد الذي أراد أن يقرره الشيخ هنا؟ قرره من خلال هذه الآيات: الآية الأولى: ﴿وَمَا

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، وانتبهوا معي إلى أن قوله تعالى: (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) اللام هنا هي لام تعليل وليست لام العاقبة؛ لأن بعض من تكلم في تفسير هذه الآية، ظن أنها لام العاقبة، إذن ما خلق الله الجن إلا للعبادة، فجعلها خاصةً للمؤمنين؛ لأنه من هو الذي ينطبق عليه أنه عبد الله؟ هم الموحدون الذين ماتوا على ذلك، لكن هذا قولٌ مرجوح، بعضهم فسر قوله: (لِيَعْبُدُونِ) بـ"ليعرفون"، أي يعرف الله عز وجل وهذا خطأ؛ لأن جميع بني آدم يقرون بالله عز وجل ، ويعرفون الله سبحانه وتعالى ، ولا يكاد يجهله إلا الندرة من الناس.

إذن القول بأنها خاصة بالمؤمنين، فتكون لهم العاقبة، ما خلقتهم إلا ليعبدون، فقال لك هذه خاصة بالمؤمنين الذين عبدوا الله، أو القول بأن المفروض (لِيَعْبُدُونِ) أي يعرفوني، كلاهما مرجوح، وإنما اللام لام التعليل، ويكون معنى الآية أن الله لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، خلقهم لعبادته، ثم منهم من عبد الله، وآمن، ووحّد، ومنهم من لم يعبد الله، ولم يؤمن، ولم يوحّد.

هذا البيان: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يقرر لدينا منهجياً، قاعدتين مهمتين، يجب أن نواجه بهما العالم من أقصاه إلى أقصاه:

القاعدة الأولى: أن هذا الإنسان الأساس في خلقه، وتشريفه، وتكريمه، الأساس في الغاية من خلقه، هو عبادة الله وحده لا شريك له، وكثيرٌ من الناس يخطئ في هذه القضية، فيظن أنه والله لا.. الإنسان خُلق ليعيش، ليبني حضارة، خلق ليكون المجتمع، وينظم حياة الناس، الإنسان عاش كذا.

المنهج الإسلامي يقول لك افصل بين القضيتين؛ القضية الأولى: أن هذا الإنسان الذي كُرِّم وشُرِّف، هذا الإنسان إنما خلقه الله للعبادة، ثم كيف تكون العبادة فيما يمكن أن ينظم به الإنسان حياته ونفسه.

ولهذا تلاحظون أن من أكبر الأخطاء في القضايا الكبرى العالمية اليوم، ثقافياً، وفكر العولمة.. وغيرها، هي أنها قائمة على نقض هذا الأصل. الثقافة العالمية من أقصاها إلى أقصاها، قائمة على نقض هذا الأصل.

المنهج الإسلامي في هذا الباب يقول لك لا ، أصل (مَا خَلَقْتُ) الله يقول : (مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ) إذن عندنا مقدمة أن الله خلق الكون، وخلق الإنسان، وهذه مقدمة بدهية.

ثانياً: لماذا خلق الله الخلق؟ قال لك الجواب، خلقهم الله عز وجل للعبادة. وإذا كان كذلك، فأمر العبادة والتوحيد لله سبحانه وتعالى يجب أن تقدم على كل شيء، وأن تكون أساساً لكل شيء، هذه القاعدة الأولى.

بعض من يتكلم من الدعاة، أو طلبة العلم.. أو نحو ذلك، تشغله هذه الهيْلَمة العالمية، الثقافية العالمية، فينشغل بها من خلال منهج الإسلام، ويقدم التشريع الإسلامي، والمنهج الإسلامي، والأحكام، وهو مأجورٌ إن شاء الله تعالى، ولا شك أن المواجهة للثقافة الغربية بالنسبة للأمة الإسلامية هي مواجهة قائمة، وتقوم على أسسٍ عالمية، من يطلع على المعركة من بعيد، يعلم علم اليقين أن الكفة في هذه المواجهة العالمية، الفكرية، الثقافية، العالمية، أن الكفة فيها إنما هي للمسلمين، وهذا الذي يدركه الغرب ومثقفوه وغيرهم.

فإذا كان كذلك، فإن الداعي إلى الله عز وجل أحياناً يدخل في تفاصيل قبل أن يقعِّد القاعدة، والمنهج الصحيح أن تقعّد القاعدة، هذه هي القاعدة الأولى التي يحتاج إليها في التعليق على هذه، وهي قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

القضية الثانية وهي قاعدةٌ عظيمةٌ جداً، أن أساس حركة الإنسان وعمله، وعبادته، وخلقه، وسلوكه، هو مبنيٌ على التوحيد. إذن أنت تريد بناءً مجتمعياً قوياً، لماذا تنشغل بالمكملات الأخرى، وهي مهمة في بعض الأحوال، ويُحتاج إليها في أثناء المسيرة، وتغفل عن الأصل، ألا وهو تحقيق العبودية لله عز وجل ، أنك أيها العبد ما خلقت إلا لعبادة الله عز وجل .

يأيها الإخوة في الله، الإنسان وهو يسير في هذه الحياة في طموحه، الأسرة، الأم، الأب، البنت، الولد، الطموح من جميع نواحيه؛ في الأمور العلمية، وفي المناصب، وفي المكانة الاجتماعية، وفي الشهرة ...إلى آخره.

هذه الأشياء كلها إنما يقودها، ويؤسسها عند الأمة الإسلامية، التوحيد لله عز وجل . هذا التوحيد هو الذي يضبط المسار.

يعني وأنت تتحرك في هذا، لما تعود، يضبط المسار لك، ومن ثم لما يأتي التوجيه أحياناً في حياة الإنسان، ويقول لك يا أخي اغرس في قلبك مراقبة، يا أخي اغرس في قلبك الإخلاص في عملك. نعم، هذه كلها إنما هي أعمال قلوبٍ تقودك يا عبد الله إلى إيش؟ إلى هذا الأصل. أنت ما خُلقت إلا للعبادة، أنت ستمر في هذا (27:23) كما مرّ غيرك، وتأكل كما يأكل الناس، وتنام كما ينام الناس، والفروقات يسيرة، لكن الميزة الكبرى لك يا عبد الله حين تحقق هذه العبودية.

طيب.. (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) هنا يأتي سؤال مهم جداً، ألا وهو هل معنى هذا أن مقتضى دلالة هذه الآية: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أن الإنسان يترك الحياة وعمرانها؟ نقول كلا، هذا لا يقتضي أبداً، وإنما تلك العبادة تقتضي أن تعمر هذه الأرض بمختلف أنواع العمران، على

مقتضى ذلك بالتوحيد، ولدينا دليلٌ تاريخيٌ قائم نقرؤه، أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين خرجوا من الجاهلية إلى الإسلام، وتمسكوا بهذا الدين، وفرحوا به، وكان لهم من الحالة في الإيمان والتقوى، والجهاد، والمجاهدة، والصحبة لنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لم يكن لأحدٍ من بعدهم، هؤلاء هم الذين عمروا الدنيا، هم الذين فتحوا الدنيا. ما رأينا الصحابة بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى جلس واحدٌ منهم على أحد أعمدة المسجد النبوي، وقال أنا سأتفرغ لهذه العبادة، ولا أريد دنياكم.. لا، هؤلاء الصحابة هم الذين فتحوا الدنيا.

ومن هنا يا أيها الإخوة في الله، فإن انفتاح المؤمن على الدنيا مع التوحيد، إنما يزيده عوداً إلى التوحيد، هذه هي الصفة الصحيحة، تماماً مثل كثرة الغنى عند المؤمن، يزيده تواضعاً، لا يزيده غروراً. كذلك أيضاً انفتاحه على الدنيا، يزيده معرفة، معرفةً بقدرها، ويقيناً بقدر الآخرة.

ومن هنا جاء في كتاب الله عز وجل من أوله إلى آخره يا أيها الإخوة بيان، وهذه حقيقة مهمة جداً. جاء في كتاب الله تفصيلاً لليوم الآخر، وأما الدنيا فإنما جاء التزهيد بها لأمر، وهو أن الدنيا لا يحتاج الإنسان فيها إلى حثّ، لا يحتاج فيها إلى ترغيب؛ لأنه بطبعه مائلٌ إليها، فحقيقة: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) هي منهاج حياة.

لذلك أنا أوصي نفسي وأوصي الآخرين، بأن نقف عند هذه الآية ومدى أثرها على حياتنا.

الآية الثانية: وهي قول الله تبارك وتعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)الشيخ هنا في هذا يقرر قضية، هذه القضية تقوم على أساسين:

الأساس الأول: أن الرسل جميعاً قام دينهم على هذا الأصل.. كل الرسل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ). إذاً منهج الرسل واحد، وطريقة الرسل واحدة، وعلى هذا فينتقض هنا دعوى تطور الجنس البشري، وترقيه، وترقي عقله، وأنه نشأ بُدائياً، وانتهى بنهاية التاريخ في هذه الحضارة العرجاء، حضارة الجاهلية، التي تريد أن تقود العالم إلى الجاهلية.

هذه نقول هذا كله هراء في منهج الإسلام. الرسل وبِدءاً بآدم وهو نبي الله عز وجل إنما كانوا مع أممهم على الدعوة إلى هذا الأصل، إذاً هو أصل تاريخ البشرية.

الأمر الثاني الذي تقرره هذه الآية، هو أنه قام على الأصلٍ: (أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) وهذا أصل أراد أن يقرره الشيخ رحمة الله عليه (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) لابد منهما، وهو مقتضى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله".

إذاً ليس فقط اعبدوا الله، كما قد يحلو للبعض مجاملةً لقوى فكرية، وثقافية معينة. لا، وإنما لابد من الأصلين: (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) بمعنى كما أنك تعتقد التوحيد، وتحبه، وتحب أهله، فيجب عليك أيضاً أن تُبغض الشرك، وأن تُبغض أهله. يعني لابد من تكامل الأصلين: (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ).

والطاغوت أيها الإخوة كما تعرفونه، أو تعلمون تعريفه، هو كل ما تجاوز به العبد الحد الشرعي من معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاع. وهذه الثلاث تجمع أصول الشرك:

من معبود يُعبد من دون الله؛

أو متبوع تتبعه على عبادة غير الله؛

أو مطاع تطيعه في غير ما أنزل الله.

هذا هو الطاغوت، وكل هذه الأنواع الثلاثة هي أنواعٌ للطاغوت.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى الآية الأخرى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) الآية)، (قَضَى) بمعنى حكم، (أَلاَّ تَعْبُدُواْ)، (قَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، ما الذي تفيده هذه الآية في سياق الباب؟ تفيد أمراً واحداً. طبعاً كونه قرن بينها وبين (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) له مدلول معلوم، لكن (قَضَى رَبُّكَ) بمعنى أن الله حكم. طيب وإذا حكم؟ فقال: حكمه الشرعي في الدنيا هو الباقي، وحكمه يوم القيامة هو الذي يمضي ويُنفذ، وعلى هذا جعل الله حياة الناس في الدنيا حياة تكليف، وقد قضى الله أن المسلم، أو أن الإنسان، لا يكون له فلاح إلا بأن يعبد الله وحده لا شريك له.

هذا حكم الله، ثم رتب سبحانه وتعالى نتيجة هذا الحكم في الآخرة، فحكم كما سيأتينا إن شاء الله تعالى أن من لم يعبد الله وحده لا شريك له، فهو من الخاسرين ومن أهل النار.

إذاً هناك قضية، وهي أن التوحيد، والإيمان، وعبادة الله وحده لا شريك له، هي حكم الله عز وجل ، والخطاب لجميع البشر.

إذن حكم الله قاطع في هذه المسألة، أصل التوحيد أمرٌ ربانيٌ تامٌ ونافذ، ولا يجوز لأحد، ولا يستطيع أحد أن يغير حكم الله سبحانه وتعالى .

طيب.. ثم ذكر الآية التي تليها، وهي قول الله تعالى : (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) وهنا ذكر القضيتين: (اعْبُدُواْ اللّهَ) هي القضية الأولى، الثانية: (وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) أفادت الآية أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن الشرك، كبيره وصغيره، كثيره وقليله، لقوله تعالى : (وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) لأن الإشراك بالله ولو بالقليل قد ينقض أحياناً أصل التوحيد، وقد يُضعفه حين يقع الإنسان بالشرك الأصغر كما هو معلوم.

الآية التي تليها وهي قوله تعالى في سورة الأنعام: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا) ثم المؤلف رحمه الله تعالى نقل قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وهو في سنن "الترمذي": (قال ابن مسعود رضي الله عنه من أراد أن ينظر إلى وصية محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ). الآيات) من الآية 151 إلى الآية 153.

شرّاح كتاب التوحيد أطالوا النفس في تفسير هذه الآيات، لكن هنا ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه وابن مسعود رضي الله عنه من علماء الصحابة، وأئمتهم، وفقهائهم، ومن ثم فإنه لما كان في الكوفة، نشأت هناك مدرسة، هي مدرسة أهل الكوفة، مدرسة علقمة، والنَّخَعي، وهي مدرسة كبيرة جداً، وعبد الله ابن مسعود إمام، وابن عباس حَبْر القرآن.

ابن مسعود عاش إلى سنة اثنين وثلاثين أو ثلاث وثلاثين هجرية، هذا ابن مسعود، توفي في هذا العام تقريباً. ابن مسعود كان بعده بخمس وثلاثين سنة تقريباً عاش، فابن مسعود من كبار علماء الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وهو صاحب مدرسة. ماذا يقول هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه ؟

(من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي عليها خاتمه) والخاتم معروف، الخاتم هو نهاية ختم الكتاب، وكانوا قديماً يختمون الكتاب، ثم يختمون وعاء الكتاب، هذه كلها كانت جارية. أما ختم الكتابة، فإنه إذا كُتب كتابٌ وانتهى، يضع عليه خاتمه، حتى لا يُزاد فيه؛ لأنه سيرسله، وسيتحمل من يرسله مسؤولية هذا الخطاب، فصار يُختم لأجل ألا أحد يضيف شيئاً، ثم بعد ذلك أيضاً صار الخاتم على وعاء الكتاب، فصاروا إذا أرسلوه إلى أحدٍ، ختموا وعاءه.

ولاشك أن الختم الأول هو الأقوى، وهو الذي يظهر من مدلول كلام ابن مسعود رضي الله عنه : (من أراد أن ينظر إلى وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي عليها خاتمه) طيب، وما مدلول هذا الخاتم؟

قال لك له مدلولان:

أحدهما: الكمال، والدين كامل، فهذه الوصية تكاد تجمع كمال هذا الدين؛

الأمر الثاني: أن هذا الخاتم قد دل على أن هذه الوصية باقيةٌ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ختمت به الرسالات، فكذلك أيضاً ما اقتضته، وما دلت عليه هذه الآيات من الوصية: (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً) إلى آخر الآيات. (أَتْلُ مَا

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إذن عندنا قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْاْ) وكلمة (تَعَالَوْاْ) في اللغة العربية لها مدلول، فيه شيءٌ من الخصوصية (قُلْ تَعَالَوْاْ)، ولهذا يقولون فيها معنى الرفعة، وليس فقط هو مجرد النداء.

(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ) إذاً الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم، (أَتْلُ) ماذا؟ (مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)، (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إذاً الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآيات ينادي ليتلو عليهم ما حرمه الله عز وجل فما الذي حرمه؟ ذكر عدة قضايا، وهذه القضايا منها ما هو محرم كالشرك: (أَلاَّ تُشْرِكُواْ)، ومنها ما ليس محرم مثل: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)، فتكلم المفسرون في مدلول: (أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) ولهم كلامٌ طويلٌ في مقتضى تضمين سياق الآيات.

ومعلومٌ أن أهل اللغة العربية، يعرفون مقتضى السياق، فيفرقون بين ما هو محرمٌ، حرمه الله عز وجل مثل الشرك بالله، وأمر بضده وهو التوحيد، وما قد أمر الله عز وجل به مثل: (بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)، ونهى عن ضده مثل العقوق إلى آخر الآيات.

والشاهد هنا، أن الله افتتح هذه الآيات بهذا الأمر العظيم، وهو النهي عن الشرك، ثم خُتمت هذه الآيات في سورة "الأنعام" بقوله تعالى : ({وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ) هذه الآية وما قبلها، فيها دلالة على الأصل الذي قام عليه ما جاء به رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم : (هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً)، (لاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ) على أي أساسٍ يقوم؟ على توحيد الله، وعلى الكفر بالطاغوت، على البعد عن الشرك بالله عز وجل ، ثم ما يتبع ذلك من القضايا التي دلت عليها هذه الآيات .

طيب.. ختم الشيخ الباب في حديث معاذ بن جبل، قال رضي الله عنه وأرضاه قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حماره) ومعاذ بن جبل من علماء الصحابة، ومن قضاتهم، وتاريخهم يحتاج إلى وقفة، فأوصي بقراءة ترجمة هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه .

قال: (كنت رديف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على حمار) وهذا من تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم ، ركب الحمار، وأردف عليه. ماذا؟

(فقال لي يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ فقلت الله ورسوله أعلم) لاحظوا معي، يعني هذا الحديث لمن تأمله فيه حقيقة أمر أتمنى من نفسي ومن الإخوة الحاضرين أن يستحضروه؛ لأنه خبرٌ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفعه إلى رب العالمين سبحانه وتعالى ، عهد، ميثاق، مع أن الله غنيٌ عن العالمين كما جاء في الحديث الآخر: ((لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية

العاصين)) ومع هذا يأتي هذا الوعد، وهذا الحق الذي أمر الله به عباده، لكن قابله بحقٍ أوجبه على نفسه، مع أنه لا يجب عليه شيء. من نحن يا أيها الإخوة؟ من نحن أمام عظمة مالك الملك؟ بيده ملكوت السموات والأرض؟!

لاحظوا معي، يعني تأمل، تأمل هذه العبودية، هذه الصلة بين العباد وبين رب العالمين سبحانه وتعالى ، هذا العهد وهذا الميثاق، وانظر إلى مواثيق الدول، ومواثيق الأفراد، ومواثيق الملوك، والعهود، وتوقيعها، ومحادثاتها.. وغيرها. انظر إليها كيف تأخذ حيزاً في حياة الناس، وفي قضايا ربما تتأثر بها مناطق ودول، ومتغيرات كبرى، تعال إلى هذا العهد، الذي يخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويخبر به معاذ بن جبل وهو رديفه: (أتدري) شوف الاستفهام هو من باب كما يقول العلماء حث السامع على معرفة الفائدة، وهذا كان أسلوباً لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، كثيراً ما خاطب به أصحابه؛ علامة الاستفهام، السؤال: (أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟).

معاذ ليس له إلا أن يقول: (الله ورسوله أعلم) قال صلى الله عليه وآله وسلم : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب..).

لاحظ معي: (أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) حقيقة كبرى، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) حقيقة كبرى، لكن هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينزّل هذه الحقيقة الكبرى إلى واقع مسيرة حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة. فسر لي ما هذه الحياة منذ نشأتك أيها الإنسان، وإلى أن تبعث يوم القيامة والبعث حقٌ، اختصر لي هذه المسيرة، يقول يختصرها هذا الحديث، عليك حق، ولك حق، عليك حقٌ واجب من الله عز وجل أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، هذا حق إلهي رباني، وهذا معنى التركيز على قضية التوحيد، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.

طيب، ما هو الجزاء؟ الجزاء عظيم، وحقٌ أوجبه الله على نفسه، والله عز وجل لا يجب عليه خلافاً لأهل البدع، من المعتزلة وغيرهم، الذين أوجبوا على الله أشياء بالعقل، نحن نقول لا، مالك الملك يتصرف فيه كما يشاء، ولو شاء لما خلقنا، ولو شاء لكنا كالملائكة، ولو شاء لهداكم أجمعين، ولو شاء الله ما أشركوا، مالك الملك هو المتصرف في خلقه كما يشاء، هو سبحانه وتعالى أوجب على نفسه، وهذا من عظيم رحمة الله عز وجل بنا أننا إذا عبدناه لا نشرك به شيئاً، فإنه وعدنا سبحانه وتعالى ألا يعذبنا، (أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً).

إذاً هذه هي خلاصة الباب الذي هو كتاب التوحيد، وهذا هو مدلوله.

فيا عبد الله، يا أخي في الله، اختصر القضية كلها بهذه المعلومة، عهد الله، حق الله، والله عز وجل كرماً منه وتفضلاً وهو الغني عن العالمين أكرمك بهذا الوعد، الوعد الحق الذي لا يتغير ولا يتبدل، حقٌ قاطعٌ جازم، وبهذا تختصر القضية.

قال معاذ: (أفلا أبشر الناس)؟ لأن هذه بشرى، انتبهوا معي لهذه المسألة المهمة جداً، نحن قلنا قبل قليل إنها تختصر القضية، لكن فيها بشارة، هذه البشارة مقتضاها أنك إذا لم تشرك بالله شيئاً، وسيأتي بيانها في الدرس القادم، في الباب الذي يليه، أنك إذا لم تشرك بالله عز وجل ، فلك موعدٌ عند الله عز وجل ، ليس هناك أعظم من هذه البشرى.

ومن ثم يا أيها الإخوة في الله، فإن مسار الإنسان في هذه الحياة، إنما يعتمد على بقاء هذا التوحيد في القلب، ثم الموت عليه، أن تموت وأنت محققٌ لهذا التوحيد، ومن ثم جاء في الأحاديث: ((من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)).

هذه هي الرحلة التي ينبغي للإنسان أن يحمل زاده الأساسي.. نعم هناك زاد، وتقرب، وطاعات، وعبادات وغيرها، لكن الزاد الأساسي الذي هو أهم عليك من النَّفَس، والأوكسجين، ومما هو بُلغةٌ من طعامك، أهم وأهم، وأهم، بما لا يقاس، هو زاد التوحيد الذي تحمله، ومن ثم كان خوف السلف رحمة الله عليهم من زيغ القلب في هذه القضية.

قال: (أفلا أبشر الناس؟) إي والله بشرى ، قال: (لا تبشرهم فيتكلوا، فأخبر به معاذٌ قبل موته تأثماً) هنا فيه ثلاث مسائل أختم بها درس الباب:

المسألة الأولى: هو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تبشرهم فيتكلوا) هذا فيه بيان أن الناس أحياناً قد يغتروا بالحق، يعني قد يصيبهم الحق.. قد يصيبهم عند معرفتهم بالحق أحياناً إلى الغفلة، ولهذا ليش قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (فيتكلوا)، (لا تبشرهم فيتكلوا) خوفاً، هو خاف عليهم أن يتكلوا على هذا الوعد من رب العالمين.

وعلى هذا فإن مسيرة الإنسان في عبادته لربه سبحانه وتعالى ينبغي أن يستحضر هذا الأمر، وهذا معنى ما قرره الأئمة رحمهم الله تعالى أن يكون الإنسان دائماً بين الخوف والرجاء، فهو يستبشر بهذا، وهو أيضاً يخاف. يستبشر بمثل هذا الوعد، وأيضاً يخاف أن يتكل عليه، فيوكل إلى نفسه فيزل.

الأمر الثاني: هو أن معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه أخبر به قبل موته تأثماً، وهذا يذكره العلماء رحمهم الله تعالى في مسألة عدم كتمان العلم، فيأتي السؤال: لماذا أخبر به قبل موته تأثماً، ولم يكن الخبر به قبل ذلك؟

يعني قد يقول قائل أليس الصحابة أقوى إيماناً ممن جاء بعدهم؟ ها هو من جاء بعدهم.. انتبهوا! ها هو من جاء بعدهم عرفوا، كل من سمع حديث معاذ عرف، أليس كذلك؟ مع أنه أقل إيماناً من الصحابة، فلماذا؟ لماذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تخبرهم فيتكلوا)، مع أنهم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟

الجواب سهل، وهو أن التشريع الرباني على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء ليكون الأمر متعلقاً بالصحابة؛ لأنهم الذين خوطبوا بالحديث. طيب، وما الفائدة؟ قال حتى يتعظ من بعده.

أوضح المسألة، ربما لا تتضح عند البعض. كيف؟ أرأيتم لو أن الحديث ليس فيه: (أفلا أبشرهم)، وليس فيه قوله: (لا تبشرهم فيتكلوا)، وليس فيه: (فأخبر به معاذٌ قبل موته تأثماً) فلربما وقعنا في الفهم الخاطئ لمثل هذا الحديث أو لا؟ نعم.

إذاً من جاء بعد الصحابة، كلهم سيتلقون الحديث بإيش؟ بقصته، وليس بعيداً عن قصته، انتبهتم معي؟ يعني أننا الآن نحن نشرح هذا الحديث مثلاً في هذا الوقت بالذات، ونقول انظر إلى المسألة. إذاً كأن التنبيه جاء بالحكاية، يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو المشرع، سأل معاذ وقال له: (لا تبشرهم)، ومعاذ أخبر به من أجل النتيجة الكبرى لمثل هذه الحقيقة العظيمة، وهي ألا يتكل الإنسان على مثل هذا الأمر.

إذاً بانت الحقيقة وإلا لا؟ أنتم معي وإلا لا؟ بانت الحقيقة كما في الأحكام التي وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لما يقول كيف وقع الزنا في أصحاب النبي؟ كيف كذا؟ نقول له سبحان الله، هذا هو كمال التشريع، فبهذا يتبين وتتبين هذه الحقيقة.

المسألة الثالثة في هذه القضية، وهي أنه يُؤخذ من هذا الحديث درسٌ ذكره العلماء رحمهم الله تعالى متعلق بالقضايا التي ينبغي لأهل العلم أن يبينوها للناس، وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيانٍ لهذه المسألة، وأن العالم قد لا يتكلم في مسألة لا تركاً لها، ولا إلغاءً لها، لكن قد لا يخاطب بها قوماً في بعض الأحيان لمصلحة الراجح، وهناك فرقٌ بين كتمان العلم، وبين أسلوب النصح. ألسنا في حياتنا نستخدم الأساليب في النصح المختلفة؟

فلو رأينا إنساناً يائساً، نذكره بالآيات التي ترفع عنه اليأس وإيش؟ وتشرح صدره للتوبة إلى الله عز وجل والرجوع إليه.

لا يقول قائل كيف تُغفل نصوص اليأس؟ والعكس بالعكس، فكذلك أيضاً ما قد يخاطب به العالم قوماً، قد يخاطبهم بشيء، لكن كتم مسائل العلم لا يجوز، وقد أخذ الله العهد والميثاق على العلماء أن يبينوه ولا يكتمونه.

اتفضل يا شيخ..

القارئ: أحسن الله إليكم.. **(قال باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ، وقول اللهتعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حق، والنار حقٌ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) أخرجاه. ولهما في حديث عتبان: (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).**

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (قال موسى عليه السلام يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به قال: قال يا موسى: قل لا إله إلا الله. قال كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله) [رواه ابن حبان والحاكم وصححه].

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم؛ لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة).

هذا الباب مناسبٌ جداً للباب الذي قبله. بعد أن بين التوحيد، وجمع مسائله، بدأه بـ(باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) وهذا من أفضل ما يكون من بيان الحق والترغيب فيه (فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب).

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعالى آية الأنعام وبعض الأحاديث، افتتح هذا الباب بقوله: (باب قول الله تعالى : {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} وقد جاء هذا مفسراً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أن المقصود بالظلم هنا الشرك، وهذا في الصحيح.

ومدلول هذه الآية: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ) أي يخلطوا. (إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ) أي بشركٍ.

مدلول هذه الآية وجزاؤها هو قوله تعالى في آخرها: (أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) وهذا فيه إشارة إلى فضل هذا التوحيد، فالذين آمنوا بالله ووحدوه، ولم يخلطوا إيمانهم بشركٍ؛ قليل ولا كثير، قال: (أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ).

هنا يا أيها الإخوة ذكر مسألتين:

المسألة الأولى: وهي أن من وحد الله عز وجل ولم يشرك به شيئاً، فله الأمن التام يوم القيامة. طيب، الأمن يوم القيامة على درجتين، وبعضهم يقسمها إلى ثلاث درجات بناءً على: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} لكن كثيرٌ من العلماء يجعلها على قسمين؛ لأن المقتصد، والسابق بالخيرات، هؤلاء لهم أمنٌ تام.

إذن الأمن التام لمن وحد الله عز وجل وآمن به، وأتى بالواجبات، ولم يقترف الكبائر، هذا له الأمن التام، والأمن التام يوم القيامة، الناس فيه كما في درجات الجنة، أيضاً على درجات، فأمن السابقين إلى الخيرات أقوى وأعظم من أمن المقتصدين، لكن يجمع الطائفتين الأمن التام.

أما من مات على التوحيد، وهو مقترفٌ للمعاصي والكبائر، ولم يتب منها، فهذا يكون له الأمن، لكن ليس الأمن التام، ما نوعية هذا الأمن؟ قد جاءت النصوص ببيانه، بحيث نقول له الأمن التام من الخلود في النار، وله الأمن التام باستحقاقه دخول الجنة، وما دون ذلك فإن أمنه ناقص، وذلك بسبب الذنوب والمعاصي.

وعلى هذا فالناس يوم القيامة على تلك الأقسام المعروفة، هي في الجملة قسمان: قسمٌ ليس لهم أمنٌ مطلقاً، وهم الذين أشركوا بالله، وماتوا على الكفر به والعياذ بالله ، وقسمٌ لهم الأمن، والقسم الثاني هم على درجات ثلاث في هذا الأمن.

المسألة الثانية في الوعد بهذه الآية، قوله: (وَهُم مُّهْتَدُونَ)، ففيه إشارة إلى أن من أراد طريق الهداية، فليخلص قلبه من الشرك. من أراد الاستقامة على المنهج، والهداية في الدنيا على الطريق المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم، فليخلص قلبه ونفسه من الشرك. إذاً مفتاح الهداية هو التوحيد.

ثم ذكر حديث عبادة بن الصامت، الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ...)) إلى آخر الحديث.

انتبهوا معي لهذا الحديث.. هذا الحديث فيه إشارة إلى جملةٍ من القواعد المفسرة لبيان حقائق التوحيد، وفي نهايته بيان فضل هذا التوحيد، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

الإشارة في هذا الحديث إلى هذه القضايا الجامعة، مهمٌ في عالم اليوم، مهمٌ كل وقت، لكن في عالم اليوم، ونعني بذلك الثقافات، وحوارات الأديان.. وغيرها؛ لأنها للأسف الشديد في غالبها لا تنبني أو لا تُبنى على الأصول الصحيحة في هذا الباب.

ماذا قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث؟ ماذا قال؟ أولاً قال صلى الله عليه وآله وسلم : (من شهد أن لا إله إلا الله) بعدين قال: (وحده لا شريك له)، (من شهد)، والشهادة كما يقول العلماء:

أولاً: تكون عن علم، {إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

ثانياً: الشهادة أساسها القلب.

ثالثاً: الشهادة مقتضاها نطق اللسان.

رابعها: الشهادة أيضاً من دلائلها عمل الجوارح، وبهذا ينتقض مذهب المرجئة، الذين يقولون خلاص أنت إذا قلت "لا إله إلا الله".. خلاص. نقول: لا، الشهادة لا لها مدلول، لها مدلول عميق، ليست الشهادة هي النطق. نعم هذا هو أساسها، هو أولها حين يدخل الإنسان في الإسلام، لكن الشهادة مبنية على هذه الأسس التي أشرنا إليها، وعلى هذا فإن شهادة أن لا إله إلا الله تجمع بين اعتقاد القلب وتصديقه، وبين عمل القلب، وخوفه، وخشيته، ورجائه، ومحبته، وبين نطق اللسان، وعمل اللسان، وبين عمل الجوارح.

وبهذا يتبين أنه مصطلح الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو معنى التلازم المعروف.

قوله: (وحده لا شريك له) تأكيدٌ بعد تأكيد، (وحده) تأكيدٌ للتوحيد، (لا شريك له) تأكيدٌ لنفي الشرك.

إذاً (لا إله إلا الله) نفيٌ وإثبات، بعدين أكدها قال: (وحده لا شريك له)، بعدين (وأن محمداً عبده ورسوله)، وهذا يدلنا على قضية مهمة جداً، وهي أنه من لم يؤمن بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافرٌ مشرك، ليس له من النجاة، ولا من (1:9:2) ولا من حقيقته نصيب بعد بعثة رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن زعم أن الأديان وخاصةً اليهودية، أو النصرانية.. وغيرها، أنها أديان يمكن أن تكون حقاً، ويمكن أن يكون أصحابها مؤمنين بعد بعثة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، مع إنكارهم لبعثة محمد

صلى الله عليه وآله وسلم فقوله باطل، ليس لهم من الإسلام نصيب، وليس لهم من الإيمان نصيب، حتى لو وحدوا وعبدوا الله عز وجل ، إذا لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحقيقة.

الحقيقة الثانية: قوله: (عبده ورسوله) وهذا فيه إشارة إلى وسطية المسلمين في شهادة أن محمداً رسول الله وهي معلومة، فهو عبد الله ورسوله، هو عبد الله حتى لا نقع في غلو النصارى فيه، كما غلوا في عيسى، حتى لا نغلو فيه كما غلت النصارى في عيسى، ورسوله حتى ننقض على من يطعن في رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما طعن اليهود في رسالة عيسى، فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله، فلا نرفعه فوق منزلته، وهو رسول الله فنعزره، ونوقره، ونتبعه، ولا نتحاكم إلا إليه صلى الله عليه وآله وسلم .

طيب.. قال: (وأن عيسى عبد الله ورسوله) والإشارة هنا إلى (عيسى عبد الله ورسوله) لأمرٍ مهمٍ جداً، ألا وهو ذلك الخلل الذي وُجد قبل الإسلام، وفي أثناء نزول هذه الآيات وإلى يومنا هذا، فيما يتعلق برسالة نبي الله عيسى. فعيسى ضلت فيه الطائفتان؛ اللذان ألّهوه، وغلوا فيه وهم النصارى، والذين أبغضوه وشتموه، بل وسبّوه، وقذفوه، وقذفوا أمه، وهم اليهود.

استقامة المؤمن أن (عيسى عبد الله ورسوله)، وبعدين؟ (وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه)، وهذا فيه بيان لعقيدة المسلمين في عيسى، أن عيسى كلمة الله، ما هي الكلمة؟ أن الله قال له كن فيكون.

(وروحٌ منه) نعم روحٌ مخلوقة، كما قال الله عن آدم: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} ما الفرق بين آدم وعيسى؟ كلاهما سواء، هذا نفخ الله فيه من روحه، وهذا نفخ فيه من روحه، فلا فرق بينهما. فكيف يضل النصارى ويؤلّهون عيسى، ويقولون إن آدم بشرٌ من البشر.

(والجنة حقٌ والنار حق) يؤمن بالجنة ويؤمن بالنار، هذه الأمور يا أيها الإخوة تجمع قواعد الشهادتين، والإيمان بالرسل، وتجمع قاعدة الإيمان باليوم الآخر، (الجنة حق والنار حق) وبهذا يتكامل مفهوم الإيمان والتوحيد في هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فمن آمن بذلك، قال: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) أي ولو كان عمله قليلاً. مادام شهد، وأيقن، ومات على ذلك، فإن الله عز وجل يدخله الجنة، ففيه إشارةٌ عظيمةٌ إلى فضل هذا الإيمان.

طيب.. هناك كلامٌ كثيرٌ حول رسالة عيسى عليه الصلاة والسلام ، والنقض على النصارى، وشبهاتهم، وهي معروفة، ونسأل الله لنا ولكم الفقه في الدين.

بعدين ذكر حديث عتبان رضي الله عنه وأرضاه ابن مالك، وفي آخره: (فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

قوله: (يبتغي بذلك وجه الله) إشارة إلى الإخلاص، وفي أحاديث أخرى: ((لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك مخلصاً بها قلبه)) وهذه قيودٌ تبين أن كلمة "لا إله إلا الله" من قالها يبتغي بها وجه الله مخلصاً، فالوعد من الله أن الله حرم عليه النار، فلا يدخلها ابتداءً إذا مات عليها من غير معصية، أو تكون عاقبته أنه يكون من أهل الجنة حتى لو عُذب في النار.

قوله: (إن الله حرم على النار) العلماء بحثوا هذا التحريم، هل المقصود به أنه لا يدخلها أبداً؟ هذا هو ظاهر الحديث، فيكون مقصود الحديث أنه مات محققاً لكلمة التوحيد، وتحقيقه لها، وابتغاء وجه الله فيها، يمنعه من الوقوع في الكبائر، التي تكون سبباً لتعرض العبد للعقوبة في النار، أو أن يكون المقصود هنا تحريم الخلود فيها، وأنه حتى لو عُرّض للوعيد، فإنه لابد أن ينجو من النار.

لعلنا نكتفي بهذا في درس اليوم، ولعلنا نستكمل إن شاء الله تعالى في الدرس القادم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.